الفصل التاسع

العلاقات المملوكية ـ القبرصية

(785- 922هـ/1383- 1516م)

الفصل التاسع

العلاقات المملوكية ـ القبرصية

(785- 922هـ/ 1383- 1516م)

ومما هو معلوم ان حوض البحر المتوسط اشتمل على ثلاثة أقسام، الأول منها جزر البحر المتوسط الشرقي ويشمل قبرص ورودس، أما القسم الثاني فيسمى بالأوسط ويشمل صقلية وقوصرة ومالطة، والقسم الأخير المعروف بالحوض الغربي يتكون من جزر البليار وسردينيا وقورسيقة [1]، وعلى وَفْقِ التقسيم الثلاثي، فأن القسم الأول سيكون موضوع بحثنا، ولاسيما جزيرتا قبرص ورودس، اللتان كانتا تشكلان ملجأً آمناً لبقاء الوجود الصليبي.

إن دراسة موقع جزيرة قبرص [2] يشغل مكانة هامة كونه يحدد مكان الجزيرة استراتيجياً في تلك الحقبة، ويعد الموقع من العوامل الطبيعية التي تؤثر في أهمية المنطقة، وما يترتب على ذلك الموقع من نتائج سياسية واقتصادية وعسكرية، وعلى الرغم من إن الموقع الجغرافي لأي مدينة ثابت لا يتبدل، إلا أن الأهمية السياسية والإستراتيجية عرضة للتغير [3]، وعلى هذا فان جزيرة قبرص تقع في الركن الشمالي من البحر المتوسط وهي لا تبعد كثيراً عن سواحل بلاد الشام، وتعد ثالث جزيرة من حيث المساحة بعد جزيرتي صقلية وسردينيا [4]، وتساوى جزيرة اقريطش من حيث المساحة [1]، وبذلك الموقع فقد اكسبها

(1) طرخان، المسلمون في أوربا العصور الوسطى (سجل العرب، القاهرة: 1966م)، ص 79.

(2) لقد كانت جزيرة قبرص محطة بحرية على طرق التجارة بين شرق البحر المتوسط وغربه، فضلاً عن كونها ملجأً للتجار الذين قد يتعرضون إلى خطر مملوكي أو عثماني، كما أنها كانت سوقاً لتجمع البضائع الشرقية التي تنقل إلى أوربا، ومن ابرز موانئها ميناء فاماجوستا. ينظر: الجنزوري، الحروب الصليبية،ص 267.

(3) سعدي محمد علي كصبان، العلاقات العربية البيزنطية في جزر شرق البحر المتوسط للفترة (28-355هـ/648-965م)، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب (جامعة الموصل: 2003)، ص 12.

(4) علي بن الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: يوسف اسعد داغر (دار الأندلس، بيروت: 1965م): ج3/ص135؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 184؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج5/ص305.

أهمية سياسية وتجارية [2]، ونظراً لتلك الأهمية فقد تنازعت عليها بالتناوب الدولة العربية الإسلامية تارة والدولة البيزنطية تارة أخرى [3]، واستمر ذلك الأمر إلى أن نشأت دولة المماليك الجراكسة، التي وقع على عاتقها تحرير الجزيرة بعد صراع طويل [4].

قبل تناول العلاقات سواء كانت سلمية ام عدائية بين الجراكسة والصليبيين في جزيرة قبرص، لابد من معرفة بدايات الاستيطان الصليبي في الجزيرة، الذي يعود إلى زمن الحملة الصليبية الثالثة التي تم السيطرة فيها على الجزيرة بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا سنة 587هـ/1191م [5] لتصبح قاعدة للمد الصليبي من أجل السيطرة على الشرق [6]، وبعد نجاح المماليك البحرية في عهد السلطان الاشرف خليل من طرد الصليبيين من بلاد الشام، وتدمير آخر معقل لهم في عكا سنة690هـ /1291م [7]، ونتيجة لما حصل ألم بهم اتجهوا إلى ثلاث مناطق هي قليقيا الواقعة في جنوب شرق الأناضول، التي عرفت بمملكة أرمينية الصغرى آنذاك [8]، والى جزيرة قبرص اتجه آل لوزنيان، أما إلى جزيرة رودس، فقد اتجه إليها فرسان الاسبتارية [9]، ومكثوا فيها حتى منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي،

---

(1) الاصطخري، المسالك والممالك، ص 71.

(2) طه خضر عبيد، قبرص بين العرب والبيزنطيين (28-355هـ / 648-965م)، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين (الموصل: 1999م): ع 32 / ص 76.

(3) طرخان، المسلمون في أوربا، ص 79-81.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية: ج 1/ ص 435.

(5) لقد كانت جزيرة قبرص تحت السيطرة البيزنطية قبل دخول الصليبيين إليها. للمزيد ينظر: هانز ابرهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق: عماد الدين غانم (مطبعة ادنيار،ـ ليبيا: 1990م)، ص 345.

(6) الخربوطلي، الإسلام في حوض، ص 150؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية: ج 2/ص1223؛ شلبي، الموسوعة الإسلامية: ج 5/ ص208، 209؛ فيليب حتي، تاريخ العرب المطول (مطبعة الغندور، د.م.: 1965م):ج3/ص824؛

Lane - Pool , A history Of The Egypt , p. 217.

(7) عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني (دار المعارف، مصر: 1961م)، ص 75.

(8) اللهيبي، مملكة أرمينية الصغرى، ص 20.

(9) هيئة الفرسان الإسبتارية Kinghts , Hospitallr: تعد هيئة الفرسان الاسبتارية من أقدم الهيئات الدينية الحربية التي شهد الوجود الصليبي في بلاد الشام قيامها، ويعود الفضل في تأسيسها إلى مجموعة من تجار امالفي Amalfi، وهي إحدى المدن الرئيسة في منطقة غرب البحر المتوسط، وتقع على بعد حوالي (34كم) إلى جنوب غرب مقاطعة سالرنوه Salerno في ايطاليا، وذلك عندما قامت في سنة 473هـ/1080م بإنشاء مستشفى للعناية بالحجاج النصارى الأوربيين القادمين إلى الأراضي المقدسة. ينظر: محمد مؤنس عوض، تاريخ الحروب الصليبية التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس

هذا بدوره شكَّلَ خطراً مستمراً على الدولة المملوكية من الناحتين السياسية والاقتصادية [1]، ولاسيما الجانب التجاري الذي يعد المورد الرئيس لدولتهم [2].

لم يكن تحرير عكا نهاية الوجود الصليبي في الأراضي العربية الإسلامية في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بل أخذ شكلاً آخراً من رموز المقاومة التي استمرت قرنين من الزمن الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين[3] ومن الجدير بالذكر إن جزيرة قبرص كانت متحالفة مع الصليبيين من اجل القضاء على كل مقاومة إسلامية تقف أمام مصالحهم [4]، ولتحقيق ذلك سعوا إلى محاربة مصر اقتصادياً من اجل قطع الشريان الحيوى المتمثل بالتجارة، وحرمانها من أعظم مورد مالي كان لها [5].

وعلى ما يبدو أن عمليات القرصنة التي يقوم بها القراصنة القبارصة ضد الموانئ المصرية لم تكن عمليات منفردة بهم، بل شاركهم في أغلب الأحيان قوات أوربية أخرى متمثلة بالكتلانيين [6] والجنويين متخذين من جزيرة قبرص قاعدة لهم، لتنفيذ أعمالهم العدائية بشكل مباشر ضد الموانئ المصرية، ولذلك اتهمت الدولة المملوكية القبارصة لقيامهم بالاعتداءات على الموانئ بحكم موقعها الجغرافي القريب من السواحل الشامية

اللاتينية القرنيين 6-7هـ/12-13م (دار الشروق، عمان: 2005م)، ص 31، 63؛ كروسيه، الحروب الصليبية، ص 100؛

Stevenson , The Crusaders , p. 136.

(1) يوشع براور، عالم الصليبيين، ترجمة: قاسم عبده قاسم وآخرون (مطبعة عين، الإسكندرية: 1999م)، ص 179؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية: ج2/ص1232.

(2) Lane – Pool , A history of the Egypt , P. 336.

(3) براور، عالم الصليبيين، ص 179.

(4) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية (دار الثقافة، القاهرة: 1976م)، ص 78؛ الجنزوري، الحروب الصليبية، ص 263؛ سليم ، عصر سلاطين: ج 8/ ص121.

(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية: ج2/ص1206-1207؛ سالم، تاريخ الإسكندرية، ص 75، واستناداً إلى القرارات البابوية التي قد حذرت فيها بمنع القبارصة من المتاجرة مع المسلمين، فضلاً عن ذلك إن ملوك قبرص شجعوا التجارة بين جزيرتهم وموانئ آسيا الصغرى منذ بداية القرن السابع الهجري / الثالث الميلادي من اجل تحويل أنظار التجار الأوربيين عن موانئ مصر وبلاد الشام. ينظر: اسطفانوس الدويهي، تاريخ الازمنة، ترجمة فردينان نوئل اليسوعي (المطبعة الكاثوليكية، بيروت: 1951م) ، ص 202.

(6) الكتلانيون: جنس من الفرنج يقتسمون مملكة المرا مع صاحب القسطنطينية، التي تشتمل على جزء من ساحل بحر الروم، وتمتد بمحاذاة خليج القسطنطينية من جهة الغرب ينظر:

E. B. " Catalonia ": Vol. 5 /p. 59-60.

والمصرية[1]، وهذا ما شجع سلاطين الجراكسة إلى اتخاذ إجراءات لازمة لوضع حد لتلك التجاوزات القبرصية،التي كانت تثير القلق لدولتهم، لذلك قررت القضاء عليهم من اجل تأمين مرور المراكب التجارية في البحر المتوسط [2].

وبعد قيام دولة المماليك الجراكسة وتولي السلطان برقوق عرش السلطة خَيَّمَ الهدوء والاستقرار على العلاقات المملوكية - القبرصية، وتمخض عن ذلك نشاط سياسي مؤداه إرسال ملك قبرص الهدايا إلى السلطان برقوق، وتهنئته بتولي السلطة في دولته الجديدة [3] مقابل ذلك رَحَّبَ السلطان، وأرسل مسئول الأموال السلطانية محمود الدين بن الاستيادار [4] إلى قبرص لتوطيد العلاقة بين الجانبين، فأثمر ذلك عن جلب معدن النحاس الأحمر [5]، [5]، وعلى الرغم من كل ذلك التقارب الودي في العلاقات المملوكية - القبرصية، إلا أن هذه هذه العلاقات لم يكتب لها أن تستمر، وذلك لعدائية الأسلوب الذي اتبعه القراصنة القبارصة تجاه دولة المماليك الجراكسة، فتارةً تعتمد الهجوم المباشر عند استقرار الجزيرة داخلياً، وتارةً أخرى تعتمد أسلوب التهديد والمصادرة في حالة عدم تمكنها من القيام بأعمال هجومية ضدهم، وهو عندهم اضعف السبل الهجومية، ويثبت ذلك تَعرض دولة المماليك الجراكسة [6] بعد عام من قيامها (785هـ / 1383م) لأعمال عدوانية من لدن القوات الصليبية في قبرص على سواحل مصر وبلاد الشام واستمر الحال حتى سنة 827هـ/1423م، مّما ترتب على ذلك أمر سلبي طال الوضع الداخلي والاقتصادي للدولة الجراكسية[7]، فقد استولى القبارصة سنة 790هـ/1388م على مركب تجاري تابع للدولة الجركسية قادم من ميناء طرابلس الشام باتجاه ميناء دمياط، فكان يحمل عدداً من التجار، فضلاً عن أخت

(1) تدمري، تاريخ طرابلس: ج2 /ص 166؛ العبادي، تاريخ البحرية، ص 329.
(2) طرخان، مصر في عصر ، ص 95؛ الجنزوري، الحروب الصليبية، ص 276.
(3) الصيرفي، نزهة النفوس: ج2/ص68.
(4) الاستيادر: لفظ فارسي معناه وكيل الخراج أو المُؤن، أما معناه في دولتي المماليك هو وظيفة من وظائف أرباب السيوف، والاستيادارية وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى: ج4/ص21.
(5) المقريزي، إغاثة الأمة، ص 71.
(6) لم تكن الاعتداءات القبرصية هي الأولى على دولة المماليك الجراكسة بل سبق ذلك اعتداء على دولة المماليك البحرية، وتم عقد معاهدة بينهما سنة (772هـ / 1370م) لكن القبارصة لم يلتزموا بذلك، للمزيد من التفاصيل ينظر: تدمري، تاريخ طرابلس: ج2/ص166؛ احمد دراج، المماليك والفرنج، ص 22.
(7) المقريزي، السلوك: ج3/ ق2/ص487-488، ينظر: الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 71.

السلطان برقوق وولده وابن عمه ورداً على ذلك اصدر السلطان أمراً بإلقاء القبض على التجار الأوربيين كافة المتواجدين في الموانئ الجركسية نتيجة لذلك الاعتداء[1].

لقد اتضح من خلال سير الأحداث بان العلاقة القبرصية الجركسية كانت تتأرجح بين العداء والسلم، إلاّ أن الطابع الحربي غلب على تلك العلاقة، ومن الجدير بالذكر أن تلك الأعمال العدوانية لم تكن بشكل مستمر بل كانت تتخذ طابع الهدوء حسب التطورات السياسية للدولة الجركسية، لأنها كانت بحاجة إلى الاستقرار وهي في بداية قيامها، لذلك كانت حريصة في علاقتها مع قبرص.

وبعد وفاة السلطان برقوق وتعيين ابنة الناصر فرج [2] سلطاناً على مصر، اتخذت العلاقة القبرصية الجركسية طابعاً سلمياً، ففي سنة 803هـ/1400م أرسل ملك قبرص حنا الثاني آل لوزنيان (801-836هـ / 1398-1432م) وزيره إبراهيم كُرّي وملك الماغوصة [3] يحملان رسالة إلى السلطان الجركسي، مضمونها بان يسمح لهم بتجهيز المراكب لقتال تيمورلنك [4]، وتوثيقاً للعلاقة بينهما أقرت السلطة الجركسية السماح للمسيحيين الغربيين بزيارة كنسية القيامة [5] مقابل أن يدفع حاكم الجزيرة تعويضات كاملة عن كل ما حصل من تدمير للموانئ المصرية والشامية ثم أن تدفعَ مبلغاً من المال سنوياً لها، واستمر ذلك الاتفاق حتى سنة806هـ/1403م[6] علماً ان العلاقة المصرية القبرصية اتخذت مساراً ودياً على الرغم من

(1) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات: ج9/ ق1/ص33؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، تحقيق: جمال محمد محرز واخر (الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مصر: 1971م): ج14/ص266؛ ابن شاهين، زبده كشف الممالك، ص 138.

(2) لقد اتصف عهد السلطان فرج بعدم الاستقرار فقد كانت مدة حكمه منقسمة إلى مرحلتين الأولى سنة (801-808هـ/ 1398-1405م) خُلِعَ بعدها وعُيّنَ شقيقه عبد العزيز لمدة شهرين، أما المرحلة الثانية فكانت سبع سنوات. للمزيد من التفاصيل عن سيرته وسياسته الداخلية ينظر: المقريزي، السلوك: ج3/ق3/ص 959؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت (الهيئة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر – مصر: 1970م): ج 13/ص20، 154؛ الشرقاوي، تحفة الناظرين، ص41؛ العليمي، الأنس الجليل: ج2/ص 95؛ برنار، وصف مصر الحياة الاقتصادية، ص 65-66.

(3) الماغوصة: اسم أطلقه العرب المسلمون على مدينة فاماجوستا الواقعة على الشاطئ الشرقي لجزيرة قبرص. ينظر: المقريزي، السلوك: ج3 / ق3 /ص1039.

(4) المقريزي، المصدر نفسه: ج2 / 3 /ص 1039؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج12/ص234.

(5) كنيسة القيامة: من أشهر الكنائس وجوداً، بنتها هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين، ويعد أول إمبراطور أمر بنشر المسيحية وجعلها ديناً رسمياً لبلاده. للمزيد ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج7 /ص162.

(6) Lane – Pool , A history Of The Egypt , . P. 336.

العداء الذي كان بينهما بسبب الخطر التيموري القادم من الشرق والذي كان يهدد المنطقة، فضلاً عن ذلك فقد تعرضت جزيرة قبرص لاعتداء خارجي من قبل الجنويين واستيلائهم على مدينة الماغوصة، وهذا ما دعاهم إلى عقد تحالف جركسي قبرصي ضد الغزو التيموري والخطر الجنوي [1]، وبناءاً على ما تم الاتفاق عليه من تعويضات وفرض جزية والتحالف الذي بينهما،إلاّ أن الجانب القبرصي لم ينفذ ذلك الاتفاق بسبب توقف الخطر التيموري، وتفكك دولته الأمر الذي أعطى القبارصة فرصة لتجديد الروح العدائية [2] ضد دولة المماليك الجراكسة، فقاموا بهجوم على الموانئ المصرية سنة 808هـ/ 1405م، ورداً على ذلك تم حجز التجار والقناصل الاوربيين كافة في ميناء الإسكندرية [3]، ونتيجة لتأزم الموقف بينهما فقد شجع ذلك القبارصة عن طلب المساعدة من الحبشة [4]، والقوى الأوربية بهدف توحيد الجهود والقضاء على الدولة المملوكية [5]. وعلى ما يبدو أن طلبهم لم يقبل، فبقيت العلاقات متباينة بين العدائية تارة والسلمية تارة أخرى.

وبعد التوتر الساخن في العلاقات المصرية القبرصية في عهد السلطان الناصر فرج إلا ان عهد السلطان الشيخ المحمودي [6] اتسمت العلاقات بالودية ومما يدل على ذلك التبادل الدبلوماسي بينهما، فقد أرسل السلطان الجركسي مبعوثه اقبغا النظامي سنة

(1) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص 55؛
Fischer J. ,Welter, Ibn Khaldon In Egypt (United States Of America – California: 1967): part. I / p. 43-44.

(2) لقد قام القبارصة بالاعتداء على الموانئ المصرية سنة 692هـ / 1292م حيث اشترك معهم مجموعة من الروادسة والأوربيين بقيادة هنري الثاني ملك قبرص، وفي سنة 767هـ / 1365م تعرض ميناء الإسكندرية إلى اعتداء آخر من قبلهم أسفر عن تدميره وإحراقه. للمزيد من التفاصيل ينظر:المقريزي،السلوك:ج3/ ق1/ص413-432.

(3) المقريزي، السلوك: ج4/ ق1/ص325؛ ج4 / ق2 /ص617؛ تدمري، تاريخ طرابلس: 2/ص166.

(4) تعود بدايات العلاقة المصرية الحبشية إلى بداية العصور الوسطى وكانت ذات طابع ديني بعد أن تأكدت الكنيسة الحبشية بتبعيتها للكنسية المصرية، وقد استمر في العلاقة الودية حتى عهد دولة المماليك الجراكسة. للمزيد من التفاصيل ينظر: سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص 352-358.

(5) سعيد عاشور، بحوث ودراسات، ص 314.

(6) أبو النصر الشيخ المحمودي، يعد السلطان الثامن والعشرين من ملوك الترك، والرابع من ملوك الجراكسة، أصله من طائفة يقال لها (لاملوك) من أشراف الجراكسة، حيث جلب إلى مصر، وأصبح مملوكاً عند السلطان برقوق، للمزيد ينظر: المقريزي، السلوك: ج4/ق1/ص245-255؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص1؛ الصيرفي، نزهة النفوس: ج 2/ص88؛ مصطفى مراد الدباغ، الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلاد فلسطين (دار الطليعة، بيروت: 1981م)، ص 127-129.

818هـ/1415م إلى حاكم جزيرة قبرص للتفاوض معه في مسألة إطلاق سراح عدد من المسلمين الذين تم أسرهم في الغزوات القبرصية السابقة، واستمراراً للتفاوض وما تم الاتفاق عليه فقد أرسل المبعوث الجركسي إلى سلطان مصر يعلمه بما نتج عن المفاوضات، فيذكر ابن حجر العسقلاني قائلاً ((فانه وجد هنالك (المبعوث) خمسمائة أسير فافتداهم بثلاثة عشر ألف دينار، وانه أوصل للفرنج المبلغ الذي كان جهز معه وهو عشرة آلاف دينار، وسمح له متملك قبرص بالباقي، وحمل منهم (الأسرى) إلى جهة مصر مائتي أسير وفرّق الباقي في سواحل الشام))[1] وتعزيزاً للعلاقات الودية حاولت دولة المماليك الجراكسة أن تدعم تلك المفاوضات ببعض المقترحات لتضمن السلامة لموانئها من الخطر القبرصي، لكونها لا تملك القوة البحرية الكافية للتصدي لأي اعتداء من قبلهم، لذلك فقد اقترحت بان تتعهد قبرص بعدم السماح للقراصنة من سائر الدول الذين يكيدون العداء للدولة الجركسية في الدخول إلى جزيرتهم أو تقديم أية مساعدة عسكرية للقوى الأوربية الأخرى لغرض القيام بالأعمال ذاتها، وان تمنع رعاياها من شراء البضائع من القراصنة، وعدم الاستيلاء على المراكب التجارية المتوجهة إلى الموانئ المصرية والشامية أثناء تجارتها في البحر المتوسط [2].

وعلى الرغم من كل ذلك فقد شهدت العلاقات المصرية القبرصية نوعاً من الفتور بينهما، لأن قبرص لم تكن مستقرة داخلياً آنذاك، فضلاً عما أصاب الجزيرة من ظروف صعبة كالكوارث الطبيعية والأوبئة [3]، وكل هذا كان له تأثير في أضعاف قوة الجزيرة سياسياً وعسكرياً [4] لكن على الرغم من المعاناة التي كانت تعانيها جزيرة قبرص، فقد قام قام القبارصة بالاستيلاء على مركب تجاري في ميناء الإسكندرية سنة 825هـ /1422م والذي كان يحمل عدداً من الرجال ومبلغاً من المال يقدر بحوالي مئة ألف دينار[5]، واستمراراً للأعمال العدوانية ففي سنة 826هـ/1422م قام القبارصة وبالاشتراك مع مجموعة

(1) أنباء الغمر: ج3/ص53.
(2) المقريزي، السلوك: ج4 / ق1/ص325؛ ج4/ق2/ص617.
(3) لقد تعرضت جزيرة قبرص إلى الوباء مرات عدة في سنوات متقاربة، أولها كان سنة 795هـ / 1392م،والذي استمر لمدة سنة كاملة، مّما أدى إلى موت أناس كثيرين، وثانيها كان سنة 812هـ / 1409م، والذي بقى لمدة ثلاث سنوات وثالثها حدث سنة 823هـ / 1420م، وانتهى في السنة ذاتها، للمزيد. ينظر: سعيد عاشور، قبرص والحروب، ص 86.
(4) المرجع نفسه، ص 86.
(5) المقريزي، السلوك، ج4 / ق2 /ص 617؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج 14 /ص 249-250.

من القراصنة البسقاوية والجنوية والكتلانية [1] بالهجوم على مركبين بالقرب من ميناء دمياط يحمل بضائع وعدد من التجار فتم الاستيلاء عليهما [2]، وتمادى القبارصة اكثر من ذلك، فاستولوا على مركب محمل بالهدايا أرسله السلطان الجركسي برسباي إلى السلطان العثماني مراد الثاني (824-855هـ/1421-1415م) [3]، فضلاً عن ذلك نقضهم للمعاهدة المعقودة منذ سنة817هـ / 1414م [4] إزاء كل ذلك لم ترد دولة المماليك الجراكسة هجومياً بل استخدمت أسلوب المصادرة والتهديد، إذ أمر السلطان الجركسي بحجز أموال جميع التجار الأوربيين المقيمين بالموانئ المصرية والشامية واخراجهم منها [5]، إلا أن فكرة الرد على تلك الاعتداءات من قبل سلاطين الجراكسة منذ قيام دولتهم لم تكن بعيدة عن أذهانهم لكن انشغالهم بخطر أهم وهو الغزو التيموري الذي كان يهدد المنطقة بأكملها، ناهيك عن انشغالهم بتثبيت أركان الدولة، مّما جعلهم يتخذون موقف الدفاع بدلاً من الهجوم في أغلب الأحيان، وهذا ما جعل ملك قبرص يتمادى في القيام بأعمال عدوانية مستمرة وذلك الأمر حدا بالسلطان برسباي أن يتخذ قراراً بالهجوم بدلاً من الدفاع معالجة للأمر [6]، فضلاً عن حادثة الإسكندرية التي كان لها الأثر النفسي على سلاطين الجراكسة [7] علماً أن الرد على الحادثة لم يحصل إلا بعد ستين سنة من تأريخ الاعتداء [8].

وبعد استقرار الوضع الداخلي للدولة الجركسية انصرف السلطان برسباي إلى الاهتمام بالسياسة الخارجية من اجل إيقاف تلك التهديدات التي كانت تعانيها دولته من قبل القبارصة،ومن ابرز الأحداث الخارجية التي ساعدت السلطان الجركسي بصد الهجمات القبرصية المتكررة، هو انهيار دولة تيمورلنك القوية بوفاته سنة 808هـ/1405م، والتي كانت تشكل خطراً مباشراً على دولته، لذا لم يبقَ امام دولته سوى القبارصة [9]، الذين كانوا

(1) تدمري، تاريخ طرابلس، ص 166.
(2) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص 219-220؛ المقريزي، السلوك: ج4/ق2/ص665 ؛
E.B. " BasQue " : Vol. 3 / p. 251.
(3) ابن شاهين، زبدة كشف، ص 138؛ ماهر، البحرية في مصر الإسلامية؛ مؤلف مجهول، " قبرص في ظل الإسلام " منشور على شبكة الانترنيت: WWW.tarbawi.Com / Printartical , p. 5-7.
(4) ابن شاهين، المصدر نفسه، ص 138؛ العبادي، تاريخ البحرية، ص 337.
(5) المقريزي، السلوك، ج4 / ق2 /ص966.
(6) الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 72-73.
(7) ماهر، البحرية في مصر، ص 121؛ العبادي، تاريخ البحرية، ص 329.
(8) العبادي، المرجع نفسه ، ص 329.
(9) محمود شاكر، التاريخ الاسلامي (المكتب الاسلامي، بيروت : 2000م): ج 7 /ص 78.

يشكلون خطراً للدولة الجركسية منذ قيامها [1] عندئذٍ بدأ الاستعداد والتهيؤ لقمع ذلك الخطر الخطر فقد أمر السلطان برسباي بتجهيز المراكب [2] والزم كل أمير [3] أن يعد عشرة من جنوده استعداداً لهذا الأمر، وكانت الخطوة الأولى هي إرسال عددٍ من الجند إلى ثغري الإسكندرية ودمياط، لغرض التمهيد للحملة العسكرية، فضلاً عن اتخاذ الاستعدادات اللازمة من احتمال قيام القبارصة بالهجوم المباشر على السواحل المصرية [4]، وهذا ما أشار إليه ابن تغري بردي قائلاً ((وفي هذه الأيام كَثُرت الأخبار بحركة الفرنج فخرج عدَّة من الأمراء والمماليك لحراسة الثَّغور))[5].

يتبين من النص أن دولة المماليك الجراكسة كانت حريصة على وصول المعلومات الكاملة إليها عن تحركات القوات المعادية ضد دولتهم، ناهيك عن أن فتح جزيرة قبرص لم يتم إلا بثلاث حملات بحرية خلال ثلاث سنوات متتالية، إذ كانت الحملة الأولى سنة827هـ/1424م، فتم تجهيز مركبين أحدهما من الإسكندرية والآخر من دمياط بالأسلحة والجنود يقدر عددهم بثمانين مقاتلاً، فتحركت الحملة من ساحل بولاق حتى وصلت مدينة الماغوصة فاستقبلهم حاكمها فدخلوها دون أي مقاومة تذكر، وهذا ما شجع القوة البحرية الجركسية في سيرها قدُماً للوصول إلى ميناء ليماسول[6]، وفي أثناء ذلك التقت الحملة بمركب قبرصي محمل بالبضائع، فتم السيطرة عليه دون مقاومة عسكرية [7]، وبناءاً على تلك الانتصارات التي حققتها الحملة الجركسية، وعلى الرغم من أنها كانت حملة بسيطة التكوين من عدد وعدة، إلا أن تأثيرها المعنوي كان كبيراً، لذلك اتخذ القبارصة إجراءات

(1) علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة لمدنها وبلادها القديمة والشهيرة (مطبعة دار الكتب، مصر: 1969م): ج1/ص120؛ الدباغ، الموجز في تاريخ، ص 130؛ دائرة المعارف الإسلامية، نهايم، مادة (برسباي): ج7/ص53-54.

(2) لقد كان هنالك نوعان من المراكب هما: الطرائد والاغربه، وهما عبارة عن سفن صغيرة وسريعة السير، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص275.

(3) أن من ابرز الأمراء الذين تم إرسالهم هو اقبغا التمرازي أمير مجلس. ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص255.

(4) المصدر نفسه: ج14/ص275.

(5)المصدر نفسه: ج14/ص273.

(6) ليماسول: وهو أحد موانئ قبرص على الشاطئ الجنوبي، ويقع على مسافة (85كم) جنوب غرب نيقوسيا، ويعد احد موانئ قبرص التجارية المهمة. ينظر:
E.B. " Limassol " : Vol. 14 / p. 31-32.

(7) المقريزي، السلوك: ج4/ق2/ص671-672؛ ابن حجر العسقلاني، ابناء الغمر:ج3/ص330؛ ابن شاهين، زبده كشف، ص 138.

أمنية تقضي بإخراج سكان ميناء ليماسول من اجل الحفاظ على أرواحهم من احتمالية سيطرة القوات البحرية الجركسية على الميناء هذا من ناحية[1]. أما من ناحية الجانب العسكري فقد أمر الملك جانوس حاكم الجزيرة بالاستعداد براً وبحراً [2]، فتم تجهيز قوة عسكرية مؤلفة من ثلاثة مراكب تحمل ثلاثة مائة وسبعين مقاتلاً بقيادة فيليب بكوني حاكم الميناء وبذلك تمكنت البحرية الجركسية من القضاء على تلك المراكب القبرصية وقتل من كان فيها [3].

بعد التقديم الكبير الذي أحرزته القوات البحرية الجركسية استطاعت السيطرة على جزء من ميناء ليماسول والقضاء على الحامية العسكرية التي كانت بقيادة حاكم الميناء الذي تمكن من الهرب [4]. أما بخصوص ما يعود للجزء المتبقي من الميناء، والذي على ما يبدو انه كان شديد المقاومة، ويحتاج إلى وقت طويل للسيطرة عليه [5]، فان القوات الجركسية اكتفت بما أحرزته من استيلائها على عدد كبير من الغنائم، وبعدها انسحبت الحملة من الميناء بعد إضرام النيران في عدة جهات منه [6]، وعادت إلى مصر، وفي أثناء انسحابها التقت بمركبين قادمين من جورهيجورس الساحلية التابعة لمملكة أرمينية الصغرى، وأشعلت النار في أحدهما وسيطرت على المركب الآخر [7]، ويلاحظ أن الحصيلة النهائية لتلك الحملة كان إنذاراً أولياً لحاكم قبرص لتوقفه على حقيقة إمكانية الدولة المملوكية بالقيام بحملة أخرى، وانها قادرة على الدخول إلى الجزيرة وقت ما تشاء، ومن ناحية أخرى فأنها أعطت انطباعاً للسلطان برسباي عن ضعف مقاومة قوات جزيرة قبرص، بدليل أن الحملة تمكنت من السيطرة على عدد كبير من الغنائم وتدمير وحرق عدد أكبر من المراكب القبرصية هذا من جانب، ومن جانب آخر أثبتت مدى القوة التي تمتلكها البحرية العسكرية الجركسية، فضلاً عن كشفها للتعاون المشترك بينها وبين القوة الأوربية الأخرى الذين كانوا يسعون من اجل الوصول إلى مطلب واحد هو القضاء على القوة

(1) المقريزي، السلوك: ج4/ ق2/ص 672.
(2) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: 3 / 346.
(3) المقريزي، السلوك: ج4 / ق2/ص672؛ ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه: ج3/ص346.
(4) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص 220؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر:ج3/ص346.
(5) ابن يحيى، المصدر نفسه ، ص 220.
(6) المقريزي، السلوك: ج4/ق2/ص695؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص279.
(7) عاشور، قبرص والحروب، ص 91.

المتواجدة في المنطقة المتمثلة بدولة المماليك الجراكسة، كما أن الحملة أشبه ما تكون بحملة استكشافية أوقعت المسؤولية على جزيرة قبرص في قيامها بالاعتداءات المستمرة على الموانئ التابعة للدولة الجركسية، وبهذا عادت الحملة إلى مصر سنة 828هـ/1424م، والتي أطلق عليها اسم (الغزوة الصغرى) [1].

ونتيجة لما حققته الحملة الأولى [2] من نجاح شجع السلطان برسباي على القيام بتجهيز حملة ثانية بعد سنة من تلك الحملة أي في سنة 828هـ/1425م، لغرض عدم إعطاء القبارصة فرصة كافية لإعادة تنظيم قواتهم أو احتمال وصول مساعدات مادية إلى الجزيرة، ولهذا حرص السلطان على زيارة دار صناعة المراكب ببولاق يومياً والاشراف المباشر على سير العمل فيه [3] علماً أن عدد المراكب فيه كان أربعين مركباً خصص من أجل التوجه إلى قبرص [4].

وقد اتخذت دولة المماليك الجراكسة مبدأ التعاون المشترك بينها وبين الدويلات العربية الإسلامية أساساً في سياستها الخارجية لغرض توحيد الجهود ومقاومة الأعداء القراصنة، وبناءاً على تلك السياسة أرسل سلطان تونس عدداً من المراكب إلى الدولة المملوكية لغرض اشتراكها في الحملة العسكرية ضد قبرص [5]، وممَّا زاد من حماسة السلطان لفتح جزيرة قبرص هو استمرار اعتداءات القبارصة على الموانئ المصرية، فقد هاجمت أربعة مراكب قبرصية مركباً عائداً للدولة الجركسية كان يسير بالقرب من اللاذقية يحمل مجاذيف مرسلة إلى مصر،فتم الاستيلاء عليه وقتل ملاحيه واشعال النار فيه [6].

لقد استعدت دولة المماليك الجراكسة لإرسال حملة عسكرية ثانية وذلك سنة 828هـ/ 1425م، فجهزت بالمراكب والرجال وعُيَّنَ عليها الأمير جرباش الكريمي، إلا أنها كانت

---

(1) العبادي، تاريخ البحرية، ص 330؛ عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (مكتبة الجامعة العربية، بيروت: 1966م)، ص 210.

(2) يذكر المقريزي ان الحملة حققت نتائج طيبة منها ((قتل فارس وعدة رجال، وحرق ثلاثة أغربة، وإغرق ثلاثة اغربة، وعاثوا فيما وجدوه من ظروف العسل والسمن وغير ذلك، واسروا ثلاثة وعشرين رجلاً وغنموا جوخاً كثيراً، رفع للسلطان منه مئة وثلاث قطع ...)) . السلوك : ج4/ ق 2/ص672.

(3) المقريزي، السلوك، ج4/ ق2/ص694 ؛ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3/ص342؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة : ج14/ص276.

(4) Lane – pool , A history of the Egypt , P. 336.

(5)ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، 3 / 303؛ العبادي، تاريخ البحرية، ص 331.

(6) المقريزي، السلوك: ج4/ ق2/ص689.

أكبر قوة وعدداً من الحملة الأولى [1]، ويذكر ابن تغري بردي عن استعداد الدولة لتلك الحملة ودعمها مادياً ومعنوياً قائلاً: ((ثم نودي: من أراد الجهاد فليحضر لاخذ النفقة، وقام السلطان في الجهاد أتم قيام، وقد شرح الله صدرَهُ له)) [2]، وبالمقابل بدأت السلطة الحاكمة في قبرص بتجميع قواتها العسكرية، والاستعداد للبدء بالهجوم على الموانئ التابعة للدولة الجركسية [3] وبالفعل أرسل جانوس حاكم قبرص مركبين إلى ميناء صور لغرض القرصنة، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل نتيجةً للمقاومة التي واجهتها القوات الغازية من أهل الميناء، مّما أدى إلى انسحاب الحملة والعودة إلى قبرص، ومن ثم عاود ملك قبرص الهجوم على الموانئ المصرية، لكن المراقبة الشديدة لتحركات القراصنة من قبل البحرية الجركسية، والتي استطاعت إفشال ذلك الهجوم والسيطرة على بعض من المراكب، أما البقية الأخرى من المراكب، فقد تمكنت من الهرب [4]، ولكثرة الاعتداءات المتواصلة على الموانئ المصرية أرسل السلطان الجركسي قوة عسكرية لحراسة الموانئ في طرابلس وبيروت والإسكندرية حفاظاً عليها من الهجمات المفاجئة من القراصنة القبارصة [5].

لقد اعتمدت الدولة المملوكية في حملتها الثانية ضد قبرص سياسة الحوار الدبلوماسي وذلك لمنع نشوب الحرب بين الجانبين، فأرسل قائد الحملة جرباش مبعوثه إلى حاكم قبرص يطلب منه الاستسلام والطاعة للدولة الجركسية، وابلغ مبعوثه بان يغادر من بيروت في حين تنطلق الحملة إلى ميناء طرابلس وتنتظر هنالك ثمانية أيام لمعرفة ردّ حاكم قبرص[6] الذي أعلن مبدأ الرفض والمواجهة، وهكذا لم يبق أمام السلطان برسباي سوى الحرب فقد تحركت الحملة من ميناء الإسكندرية سنة 828هـ/1425م إلى بيروت ومن ثم طرابلس لغرض تزويدها بمراكب أخرى[7]، وبدأ الاستعداد الكامل للحملة بالتوجه إلى ميناء قرباص Korbass الواقع على الساحل الشمال الشرقي لقبرص، ومنه تحركت الحملة حتى استقرت

(1)المقريزي، السلوك، ج4 / ق2/ص690؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج 14/ص275؛ طرخان، مصر في عصر، ص 100؛ الخربوطلي، الإسلام في حوض، ص 115.
(2) النجوم الزاهرة: ج14/ص276.
(3) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر : ج3/ص 304؛ ابن شاهين، زبده كشف ، ص 139.
(4) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3/ص305؛ ابن شاهين، زبده كشف، ص 139.
(5)ابن حجر العسقلاني ، المصدر نفسه: ج3/ص309؛ ابن شاهين، المصدر نفسه، ص 138.
(6) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص 221؛ ابن حجر العسقلاني ، المصدر نفسه: ج3/ص345.
(7) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص 221؛ ابن شاهين، زبده كشف، ص140؛ ماهر، البحرية في مصر، ص ص 121؛ عاشور، الحركة الصليبية: ج2/ص1229.

بالقرب من ميناء فاماجوستا، الذي كان تابعاً للحكم الجنوي، وعندما علم حاكم الميناء بوصول القوة البحرية الجركسية وجد في نفسه ضعفاً لا يقاوم، فأرسل إلى قائد الحملة الأمير جرباش يطلب منه الأمان ويخبره بتقديم الطاعة والولاء له، ومن ثم بيّن له حالة الوضع الداخلي للجزيرة قائلاً ((فبلغهم تهيئ صاحب قبرص للقائهم، واستعداده لمحاربتهم)) [1]، وبذلك استقرت الحملة في مكانها لمدة أربعة أيام، ومن ثم توجهت إلى غرب الجزيرة للسيطرة على المدن التابعة لها، فتمكنت من الحصول على غنائم كثيرة وأسر الكثير من سكان تلك المدن، وبعدها واصلت الحملة سيرها نحو ساحل الملاّحة، وفي أثناء ذلك هاجمت بعض القوات القبرصية تلك الحملة ودار بينهما قتالٌ شديدٌ تمخض عنه إحراز النصر لمصلحة القوات الجركسية [2] التي أبلت بلاءاً حسناً فحققت من ورائه الانتصارات التي كان لها على ما يبدو دورٌ في إضعاف قوة قبرص من خلال السيطرة على المدن والموانئ التابعة لها [3].

وعلى الرغم من كل الخسائر التي لحقت بالقوات القبرصية، إلا أنهم لم يقبلوا الاستسلام وأصروا على المقاومة، فقاموا بتهيئة أسطولٍ بحري مكون من ثلاثةَ عشرَ مركباً لمواجهة البحرية الجركسية في أثناء سيرها باتجاه العاصمة قبرص نيقوسيا [4]، وعلى ما يبدو أنهم حاولوا الإيقاع بالقوة الجركسية بحيلة الفرار إلى وسط البحر لتفريقهم، إلا أن القوات البحرية الجركسية استقرت على ساحل البحر [5]، وبهذا فشلت خطه الملك جانوس التي كانت ترمي إلى إضعاف القوة البحرية الجركسية عن طريق إبعادهم عن الإمدادات التي قد تصل إليهم فلجأ عندئذٍ إلى إرسال أخيه لملاقاة الأسطول الجركسي للحيلولة دون الوصول إلى البر [6]، فضلاً عن ذلك وصول المعلومات إلى قائد الحملة الأمير جرياش عن عن طريق أحد الأسرى الهاربين من الجزيرة، وإبلاغه بوصول مساعدات عسكرية من قبل

(1)ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3/ص 365؛ ابن شاهين، زبده كشف، ص 140؛ ماهر، البحرية في مصر، ص 121، عودات، تاريخ المغول، ص 121.

(2) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص 222؛ المقريزي، السلوك: ج4/ق2/ص694؛ ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه: ج3/ص347.

(3) من المدن التي سيطرت عليها الحملة هي (لارناكا، كيتي، مازوتوس). ينظر: عاشور، قبرص والحروب، ص ص 98.

(4) ابن يحيى، تاريخ بيروت ، ص 222.

(5)عاشور، قبرص والحروب ، ص 99.

(6)ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، 3 / 347.

الجنويين متكونة من ثلاثة وأربعين صندوقاً محملاً بالسيوف والخوذ وكميات من الرماح، لكن البحرية الجركسية استطاعت أن تتدارك الموقف من خلال إنزال قوة مؤلفة من ألف جندي، والذين بدورهم تمكنوا من مقاتلة الخيالة القبارصة والقضاء عليهم وهروب القسم الآخر[1].

وبعد الانتصارات التي حققتها البحرية الجركسية على القوات القبرصية، عاودت هذه القوات إلى ميناء ليماسول لفتح الجزء المتبقي منه في أيدي القبارصة، ولاسيما القلعة التي كانت شديدة التحصين، وعلى الرغم من ذلك كله، فقد تمكنت من فتحها ورفع الراية السلطانية على القلعة[2].

وفي غضون هذه الأحداث كان السلطان برسباي يترقب بشغف وصول أخبار عمّا حققته الحملة من نتائج، وبالفعل فقد تلقى السلطان رسالة من نائبه بطرابلس (قصره) مرسلة من قائد الحملة الأمير جرباش الكريمي تبلغه بالنصر الذي حققته على القوات القبرصية إلا أنها لم تستطع السيطرة التامة على الجزيرة وخاصة عاصمتها نيقوسيا، ومما يؤكد هذا القول ما ذكره المقريزي ((ثم أن العسكر خاف من متملك قبرص، فانه كان قد جمع واستعد، فرأى جرباش أن يعود بهم فسار حتى ارسى على الطينة قريباً من قطيا، ومن دمياط))[3].

ومما هو جدير بالذكر أن الحملة الثانية قد أفرزت نتائج سياسية واقتصادية ترتب عليها أمور عدة منها: أنها استطاعت أن تثبت للقبارصة مدى القدرة العسكرية للدولة الجركسية، وان لديها الإمكانيات في مواصلة حربها ضد قبرص، هذا من ناحية الجانب السياسي. أما ناحية الجانب الإداري فقد اثبت الحملة أيضاً أنها استطاعت أن تحد من الاعتداءات القبرصية على المراكب التجارية الداخلة إلى الموانئ الجركسية، فضلاً عن انها حصلت على عدد كبير من الغنائم وعدد اكبر من الأسرى القبارصة [4].

---

(1) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص 224؛ ابن شاهين، زبدة كشف، ص 141، 355.
(2) ابن يحيى، المصدر نفسه، ص 224؛ ابن شاهين، المصدر نفسه، 141؛ الغياثي، التاريخ الغياثي، ص 355؛ ماهر، البحرية في مصر، ص 122.
(3) السلوك، ج4 / ق2 /ص 695.
(4) لقد بلغ عدد الغنائم أربعين بغلاً وعشرة جمال محملة بالصناديق التي فيها آلات الحرب والأواني فضلاً فضلاً عن الأسرى الذين بلغ عددهم ألف وستين أسيراً، فأمر السلطان ببيع الأسرى مع مراعاة ألا يفرق بين الأولاد وآبائهم ولا بين قريب وقريبة، وقد كلف السلطان الأمير أينال الشمشاتي بعملية البيع، للمزيد. ينظر: المقريزي، السلوك: ج4 / ق2 /ص 696.

وعلى الرغم من كل النتائج الإيجابية والإنجازات التي حققتهما الحملتان الأولى والثانية سواء من الناحية المادية ام المعنوية، إلا أنها لم تقنع السلطان برسباي، لأنها لم تشبع رغبته الهادفة في السيطرة على جزيرة قبرص بشكل كامل، لغرض تأمين السواحل الجركسية من التهديدات المستمرة من جهة قبرص، لكن بالمقابل يمكن القول إنه لو كان في نية السلطان في هجوم قواته على الجزيرة السلب والنهب فقط، لما جهز حملة أخرى لفتح تلك الجزيرة التي كانت تشكل خطراً مباشراً على دولته، إلا أن الحقيقة تميط اللثام عن نواياه في السيطرة التامة على الجزيرة وجعلها إمارة تابعة لدولته، وبهذا بقي السلطان برسباي مصراً على إتباع سياسية الحرب ضد قبرص، ولم يتوقف طموحه تجاه هذا الشيء، واخذ يفكر في إرسال حملة ثالثة لتحقيق هدفه المنشود، وممّا شجعه على ذلك عاملان اولهما: استنجاد حاكم قبرص بملوك أوربا سنة829هـ/1425م، وثانيهما: الروح الجهادية لدى المقاتلين الجراكسة، فيذكر ابن تغري بردي قائلا: ((بل كان الشخص إذا وقف في مجلس السلطان ينظر رؤوس النواب تتهارب من المماليك السلطانية الذين يريدون اخذ الدستور [الإذن والتصريح] من السلطان للتوجه للجهاد، والسلطان يأمرهم بعدم السفر، ويعتذر انه لم يبق مراكب تحملهم، وهم يتسارعون في ذلك مرة بعد أخرى ... وما أرى هذا إلا أن الله [تعالى] قد شرح صدورهم للجهاد وحببهم في الغزو وقتال العدو، ليقضي الله أمرا كان مفعولا ...)) [1]، وذلك طلباً للمساعدة منهم بما حّل بالجزيرة نتيجة للهجمات المتكررة عليها من قبل القوات الجركسية، إلا أن طلبه لم يلق قبولاً، وذلك لانشغال الدول الأوربية بمشاكلها الداخلية فلم يصله غير إمدادات ملك الكتلان الذي أرسل ابن أخيه مصحوباً بالمراكب والمقاتلين[2]، وعلى هذا الأساس فان الاندفاع الصليبي قد تلاشى[3]، ومقابل ذلك وصل إلى مصر مبعوث صاحب اسطنبول (القسطنطينية) بدوره حاملاً هدية للسلطان، وقام بدور الوسيط من أجل إيجاد حلٍّ مناسبٍ للجانبين، إلا أن هذا الأمر لم يجدِ نفعاً ولا ضراً، وبقي الحال على ما عليه ولم يصل إلى نتيجة حاسمة [4]، وبدأ القلق يتسرب إلى نفس الحاكم القبرصي نتيجة لقلة المساعدات التي وصلت إليه، عندئذٍ قرر طلب

(1) النجوم الزاهرة: ج14 /ص 286-287.
(2) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3/ص366.
(3) عاشور، قبرص والحروب، ص 104.
(4) المقريزي، السلوك: ج4 / ق2 / ص718؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص276-286؛ طرخان، مصر في عصر، ص 100.

المساعدة من فرسان الاسبتارية الحاكمين في جزيرة رودس، وكان الرد إيجابياً فزوده حاكم رودس بالمقاتلين وبعض المراكب، فضلاً عن ذلك أرسل على بك كرمان عدداً من المقاتلين الذين انخرطوا في صفوف جيشه لمساعدتهم وتقوية عزائمهم[1].

ومن الجدير بالذكر أن سبب إرسال جزيرة رودس المساعدات لحاكم قبرص، لخشيتها من عاقبة السيطرة الجركسية على قبرص، وما سيحل بها إذ استمر الزحف الجركسي إليها وعندئذٍ تصبح تابعة لهم، وممّا هو مذكور يتبين ان هناك أسباباً خاصة للحملة الثالثة منها: تشجيع الجنويين للسلطان برسباي على فتح جزيرة قبرص، وذلك ليوجهوا ضربة لجانوس لأنه قام بمهاجمة ميناء فاموجوستا الذي كان تحت سيطرتهم، فضلاً عن وصول المساعدات التي وصلت إلى جزيرة قبرص لغرض حمايتها [2]، إن هذا ما شجع السلطان بالاستعداد الكامل لتلك الحملة تحاملاً لما حصل سابقاً من مأساة الإسكندرية، لذلك أرسل إلى بلاد الشام [3] يطلب منهم تجهيز المراكب، وتنفيذاً لطلب السلطان جُهِّزَ مركبان وتم إرسالهما إلى الموانئ المصرية [4]، وإعلان الجهاد في جميع أنحاء مملكته [5].

إلا أن ما يميز هذه الحملة أنها كانت من اكبر الحملات الجركسية من حيث التشكيل والتكوين فهي مكونة من عدة وعدد لا بأس به، فقد بلغ عدد المراكب المشاركة في تلك الحملة ما يقارب المائة مركب، أما ما يتعلق بالتشكيل فهي مقسمة إلى قسمين: القسم البري بقيادة الأمير تغري بردي المحمودي، والقسم الثاني بحري بقيادة الأمير أينال الاجرود [6].

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص294؛ عاشور، قبرص والحروب، ص 105.
(2) لقد سيطر الجنويين على ميناء فاماجوستا بناءاً على المعاهدة التي عقدت بينهما سنة812هـ/1409م. عاشور، قبرص والحروب، ص 104.
(3) لقد كان المماليك يرون أن بلاد الشام هي امتداد طبيعي لمصر وقاعدة عسكرية لهم يستطيعون منها أن يؤمنوا حدود مصر الشرقية ضد أي اعتداء خارجي، للمزيد. ينظر: خاشع المعاضيدي وآخرون، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي (دار الكتب، الموصل: 1981م)، ص 11؛ ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (1500-1100م) ترجمة: احمد محمد عيسى (مؤسسة فرانكلين، نيورك: م1960)، ص 89.
(4) العبادي، تاريخ البحرية، ص 333؛ عاشور، قبرص والحروب، ص 105.
(5) العبادي، تاريخ البحرية ، ص 333.
(6) أينال الاجرود: هناك شخصان يحملان الاسم نفسه، فقد لقي احدهما مصرعه بأمر من السلطان الناصر فرج سنة (811هـ / 1408م) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: 2/ص205، أما الشخص الثاني وهو المقصود هنا فاسمه أينال العلائي الظاهري، الاجرود، فقد ولاه السلطان برسباي نيابة غزة سنة

أما بخصوص انطلاق الحملة فإنها اتجهت مباشرة إلى قبرص وذلك اختصاراً للوقت وعدم إعطاء الوقت الكافي للقبارصة لتجميع قواتهم، وذلك الأمر عكس ما حصل للحملتين السابقتين اللتين انطلقتا من مصر إلى بلاد الشام ومن ثم إلى قبرص [1].

وكانت الحملة تضم أعداداً كبيرة من المقاتلين والمراكب التي تحطم بعض منها أثناء انطلاقها لسوء الأحوال الجوية آنذاك، الأمر الذي دعا السلطان أن يرسل أحد الأمراء ليتحقق من هذا الخبر، وقد تبين له أن الأمر لا يستحق السؤال لان المراكب تم إصلاحها على الفور [2]، وعلى اثر ذلك كتب كاتب السلطان بدر الدين بن مزهر للسلطان قائلاً: ((يا مولانا السلطان ان كان في أوله كسر يكون في أخره جبر)) [3].

وبعد ذلك واصلت الحملة سيرها باتجاه الجزيرة والتقت بعدد كبير من المراكب القبرصية ودار بينهما قتالٌ عنيفٌ انتهى بترجيح كفة القوة البحرية الجركسية على كفة البحرية القبرصية والحاق الهزيمة بهم [4] ثم استمرت في سيرها حتى وصلت إلى لنديا التي تبعد عدة أميال عن ميناء ليماسول فحاولت القوات البحرية الجركسية دخولها واقتحامها، إلا أن حصانتها وقوة مقاومتها حالت دون افتتاحها [5]، فارتأت القوات الجركسية محاصرتها فترة من الزمن، وبالفعل فان ذلك الوقت قد أنهك المدينة من الداخل، مّما سهل على القوات الجركسية تحقيق مبتغها، فدخولها بعد ذلك وسيطروا عليها ورفعوا الراية السلطانية فوقها [6].

وكان من المعتاد عند القوات الجركسية عندما تقوم بالسيطرة على مدينة ما وتفتحها، أن يقوم قائد الحملة بإرسال رسالة إلى حاكم قبرص يدعوه فيها إلى الاستسلام وعدم القتال، وهذا ما حصل بعد فتح مدينة لنديا فطلبوا منه أن يسلم المدينة إليهم وتصبح تابعة لدولتهم، إلا أن هذا الطلب لم يلقَ أذاناً صاغيةً، لان ملك قبرص أمر بإحراق الرسالة والاستعداد

831هـ/1427م، ثم تولى السلطة بمصر سنة 857هـ/1453م ز ينظر: الصيرفي، نزهة النفوس: ج3/ص143.

(1) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3/ص366؛ ابن شاهين، زبدة كشف، ص 142.
(2) ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر: ج3/ص366.
(3) المصدر نفسه: ج 3/ص 367.
(4) المقريزي، السلوك: ج4 / ق2 / ص374؛ ابن حجر العسقلاني ، المصدر نفسه: ج 3/ص367.
(5) ابن حجر العسقلاني ، المصدر نفسه: ج 3 /ص 367.
(6) العبادي، تاريخ البحرية، ص 334.

للقتال [1] مقابل ذلك أصرت القوات الجركسية في مواصلة سيرها لتحقيق الهدف الأكبر وهو فتح العاصمة القبرصية نيقوسيا والقضاء على كل مقاومة تمهيداً لذلك الهدف.

وبهذا أثبتت القوات البحرية الجركسية بأنها صاحبة السيادة في البحر لما حققته من نتائج إيجابية، مقارنة مع القوات البرية التي أحرزت تقدماً في عملية الفتح، إذ توجهت إلى المكان الذي يتحصن فيه حاكم قبرص، وممّا سَهّل مهمة القوات الجركسية تزويد البنادقة لهم بالمعلومات التي وضحوا فيها بان القبارصة على استعداد كامل لمقاتلة الحملة الجركسية، وإنهم قد جهزوا قوة مؤلفة من خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف مقاتل لهذا الغرض [2].

بعدها شعر الملك جانوس بتأزم الوضع واقترب الخطر منه فقرر عندئذٍ الانسحاب إلى مدينة خيروكيتا kherokita الواقعة إلى الشمال الشرقي من ميناء ليماسول وعسكر فيها وفي المقابل استمرت القوات الجركسية بالتقدم إلى المكان الذي يتحصن فيه حاكم قبرص [3].

وعلى ما يبدو أن القوات الجركسية كانت تستخدم المراسلة مع الأعداء لغرض إعطاء اقل الخسائر للطرفين، وبناءاً على ذلك أرسل قائد الحملة الجركسية إلى الملك جانوس يقترح عليه الصلح، وان يتعهد بعدم الاعتداء على الأراضي التابعة للدولة الجركسية، مع تعهده بالانسحاب عن الجزيرة بعد التوقيع على معاهدة الصلح [4]، فلم يكن الرد ايجابياً من قبل حاكم الجزيرة الذي رفض الطلب، بل انه أقدم على قتل المبعوث الجركسي [5]، لذلك لم يبقَ أمام القوات الجركسية خيار آخر سوى القتال، إلا أن تصاعد الأحداث بينهما أدى بدوره إلى أن يقدم الأمير جرباش اقتراحاً بفصل القوات البحرية عن القوات البرية وهذا الذي رفضه الأمير تغري بردي المحمودي وأصر على الهجوم الموحد لغرض إحراز النصر بأسرع وقت ممكن[6] وعلى هذا باشرت الحملة سيرها حتى وصلت

(1) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3 /ص367؛ ابن شاهين، زبدة كشف، ص 142.
(2) ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر: ج3/ص367.
(3) طرخان، مصر في عصر، ص 100؛ الخربوطلي، الإسلام في حوض، ص 115؛ لين بول، سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون (مطبعة الشبكتي، مصر: 1954م)، ص210.
(4) ماهر، البحرية في مصر، ص 122؛ سعيد عاشور، قبرص والحروب، ص 108.
(5) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر : ج3/ص367؛ ابن شاهين، زبدة كشف، ص 142.
(6) ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر: ج3 /ص367.

مدينة أماثوس الواقعة بين ميناء ليماسول وساحل الملاحة، ومما زاد في حماسة قوات الحملة قول أحد أمراء العشرة وهو ابن القان قائلاً لهم ((يا وجوه العرب ويا آل جركس: إن أبواب الجنان فتحت، وان متم كنتم شهداء، وان عشتم عشتم سعداء، بيضوا وجوهكم واخلصوا العمل لله))[1]، ومن ثم التقت الحملة بقوات الملك جانوس ودارت بينهما معركة تمكنت فيها القوات الجركسية من إنزال خسائر فادحة أودت بحياة الكثير منهم وإيقاع البقية الباقية في الأسر [2]، وتأكيداً لتلك الحادثة فقد ذكر المقريزي معلقاً عليها:((فأوقع في الأسر عده من فرسانه، فأكثر المسلمون من القتل والأسر، وانهزم بقية الفرنج)) [3]، وبعد كُلّ الجهود المبذولة من قبل رجال الحملة الجركسية وصولاً إلى تحقيق هدفهم في تحطيم الجزء الأكبر من جزيرة قبرص وشعورهم بغمرة الفرح خاصةً بعدما أوقعوا بملك قبرص أسيراً من دون ان يعلموا انه الملك لولا أن صرَّحَ هو بذلك خوفاً من قتلهِ من أحد مقاتلي الجراكسة [4]، وبذلك أصبحت جزيرة قبرص تحت السيطرة الجركسية بقيادة الأمير تغري بردي المحمودي باستثناء العاصمة نيقوسيا، وقد نظمت قصائد تشيد بذلك النصر مطلعها:

بنو ترك فكم تركوا قتيلاً شجاعاً كان يخشى في الطلائع

شراكسة ليوث الحرب فازوا بنصر الله والظفر المتابع

تجمع فيهم أصلان أكرم بذي الأصلين في الحرب الممانع[5]

عندئذ لم يبق أمام القوات الجركسية غير فتح العاصمة نيقوسيا التي كانت تحت زعامة أخي الملك جانوس، إلا أن هذا الفتح تطلب جهداً غير عادي لكون العاصمة محصنة تحصيناً محكماً، فضلاً عن اتخاذ الاستعدادات العسكرية اللازمة للقبارصة بعد الخسارة

(1) أنباء الغمر: ج3 /ص 368.
(2) لقد وجد ما بين الأسرى عدد من المقاتلين التركمان، الذين أرسلهم حاكمهم علي باك قرمان، للمزيد. ينظر: المقريزي، السلوك: ج4/ق2/ص722.
(3) المصدر نفسه: ج4/ق2/ص722.
(4) بهاء الدين ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال (الدار المصرية، مصر: 1964م)، ص 82؛ حاشية رقم (1)؛ الشرقاوي، تحفة الناظرين، ص 144؛ ابن إياس، بدائع الزهور: ج 3/ص326؛ العصامي، سمط النجوم: ج4/ص 39؛ ابن العماد؛ شذرات الذهب: ج 7 /ص239؛ ماير، تاريخ الحروب، ص 355؛
Lane – Pool , A history of the Egypt , . P. 337.
(5) ابن شاهين، زبدة كشف، ص 142.

التي لحقت بقواتها سابقاً، وعلى الرغم من ذلك واصلت الحملة سيرها من الساحل إلى العاصمة، في حين وصلت بقيت القوات البحرية بقيادة الأمير أينال لحماية القوات البرية من جهة البحر[1]، وفي أثناء وصولها أطراف المدينة التقت بأربعةَ عشرَ مركباً قبرصياً، إلا أن الإصرار والعزيمة التي كان يمتلكها جنود الجراكسة مكنتهم من تحقيق النصر، على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبدتها القوات القبرصية [2].

وبعد تمكن القوات الجركسية من الدخول إلى العاصمة القبرصية نيقوسيا هرب حاكمها وعائلته إلى مدينة كيرينا الواقعة بالقرب من العاصمة القبرصية، أما سائر سكان العاصمة فقد احتموا بفندق البنادقة، علماً أنهم كانوا على علاقة ودية مع الجراكسة، وهم أول من شجعهم على دخول العاصمة القبرصية [3]،وهذا ما دعا الأهالي ومنهم الرهبان والقساوسة في المنطقة إلى طلب الأمان من الأمير تغري بردي قائد الحملة، فاستغل بدورة هذا النصر الذي كان نتيجته حصول اعتراف أهالي الجزيرة بالتبعية الجركسية، ومن ثم إعلان طاعتهم له وانتشر الخبر في جميع أنحاء قبرص [4]‘وبهذا فقد أعطى فتح قبرص مكانة مشرفة للدولة الجركسية بعد أن كانت تشكل خطراً سياسياً واقتصادياً للمنطقة [5]، وقد وقد نظم احدهم في فتح العاصمة نيقوسيا شعراً مطلعه.

بُشْـراك يـا مَلـكَ المُلُـوك الأشْـرفي بفـتح قَبْـرصَ بالحُسَـام المَشـرْفي

فـتحٌ بِشَـهْرِ الصَّـوم تـم قِتَـالُه مـن أشْـرفٍ فـي أشْـرفٍ فـي أشـرفي

فتـح تفتحـت السـموات العـلا مـن اجلـه بالنصـر واللطـف الخفـي [6]

وبعد فتح جزيرة قبرص بشكل نهائي، استقرت الحملة يومين فقط ومن ثم تحركت باتجاه ساحل الملاَّحة وأقامت سبعة أيام هناك، ومن خلال ذلك دارت محادثات بين قائدي الحملة حول الإقامة أو المطالعة بما وقع من فتح، وقد تضاربت الآراء في ذلك، فغلب

(1) المقريزي، السلوك، ج4 / ق2 /ص965؛ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3 /ص 368 –369.
(2) المقريزي، المصدر نفسه، ج4 / ق2 /ص722؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص294؛
E.B. “ Egypt “: Vol. 8 / p. 63 .
(3) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3/ص369؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص295.
(4) سعيد عاشور، قبرص والحروب، ص 114؛ العبادي، تاريخ البحرية، ص 339 –340.
(5) Hitti , History , p. 697-699.
(6) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3 /ص371؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج 14/ص 296؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ج7 /ص187.

الرأي الذي يقضي بالعودة واصطحاب الغنائم والأسرى، ومن جملة ما كان من غنائمهم أسر عظيم قبرص ـ جانوس، الذي قِيدَ ذليلاً بالسلاسل عند مثوله أمام السلطان برسباي مُقَبِلاً الأرض معفراً وجهه في التراب أمام حشد كبير من وفود السلطان أمثال أمير مكة ورسل ملك عثمان ورسل ملك تونس والكثير من رسل أمراء الشام [1].

لقد أعطى هذا المشهد للجميع تصوراً لمدى القوة السياسية والعسكرية للدولة الجركسية بمجرد مثول حاكم قبرص أمامهم، ناهيك عن تصور الفرح العارم إزاء ذلك متمثلاً بقول ابن تغري بردي:((كاد أن يطير [برسباي] ولقد رأيته يبكي من شدة الفرح وبكى الناس لبكائه))[2] في حين يذكر المقريزي واصفاً تلك الحالة قائلاً ((فكان يوماً عظيماً لم ندرك مثله))[3] يتبين من خلال النصين أن القبارصة كانوا دائماً يشكلون قلقاً للدولة الجركسية، لذلك كان لفتح جزيرة قبرص فرحة كبيرة غمرت قلوب الدولة والشعب.

وتواصلاً لسياسة الدولة التي أبدت استعدادها بإطلاق سراح الملك جانوس مقابل فدية من المال قدرت بخمسة مائة ألف دينار، تم إحضاره أمام السلطان فابلغه بذلك فرد الملك بقوله:((مالي إلا روحي وهي بيدكم وأنا رجل أسير لا املك الدرهم الفرد من أين تصل يدي إلى مال أعطيه لكم)) [4]، وعلى اثر ذلك اخذ الملك ينشد الشعر قائلاً:

يـــا ملكـــاً ملـــك الـــورى بحســـامه انظـــر ألـــي برحمـــة وتعطـــفِ

وارحـــم عزيـــزاً ومـــنعن بالـــذي أعطـــاك هـذا الملـك والنصـر الـوفي

أن لـــم تـــؤمني وتـــرحم عبرتـــي فـيمن ألـوذ ومـن سـواكم لـي يفـي [5]

يذكر ابن شاهين أن الملك جانوس قال تلك الأبيات بنفسه وان له معرفة باللغة العربية[1] في حين يذكر ابن تغري بردي انه كان أعجمياً ليس بإمكانه التحدث بتلك اللغة

(1) المقريزي، السلوك: ج4/ق2/ص721؛ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3/ص296؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص295.
(2) النجوم الزاهرة: ج 14/ص296.
(3) السلوك: ج4 / ق2 / ص725.
(4) ينظر: المقريزي، المصدر نفسه: ج4/ق2/ص726؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص302.
(5) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3/ ص370.

وانما نسبت إليه [2]، إلا أن ابن حجر العسقلاني يذكر أن الملك نظم الشعر بلغته ومن ثم ترجمت إلى العربية بوساطة ترجمان [3].

والأرجح بين هذه الروايات هي الرواية الأخيرة أي انه رُبَّما نظم الشعر بلغته أو قال بلغته كلام للسلطان دون نظم ومن ثم ترجم إلى العربية ونظمه الشعراء فيما بعد لإظهار قوة السلطان ومدى هيبته وتخضع العظماء له أو انه كلف أحد أتباعه، فنظمت تلك الأبيات لأن الملك جانوس ليس له معرفة باللغة العربية.

وبعد ذلك تكلم الترجمان مع الملك وأخبَرهُ ((فيما يفدي نفسه من المال والا يقتله السلطان)) [4]، وعندئذٍ تدخل وفود السلطان لإنقاذ حياة الملك فتعاهدوا بدفع المال المفروض عليه، ولذلك قاموا بتخفيض الفدية المطلوبة منه بعد إجراء المفاوضات إلى مائتي ألف دينار شرط أن يدفع نصف المبلغ. أما النصف الآخر فيدفعه بعد وصوله إلى بلاده مع الاحتفاظ بدفعه في كل سنة عشرين ألف دينار جزية [5] وألف ثوب صوف تقدر قيمته بعشرين ألف دينار [6]، ومقابل ذلك طلب الملك جانوس من السلطان برسباي أن يوفر الحماية لجزيرته من البنادقة والكتلان، وقد حصل على موافقة السلطان في هذا الشأن [7].

بعد أن تمت الموافقة على الشروط ودفع المبلغ الذي فرض عليه، قرر السلطان برسباي إطلاق سراحه سنة 831هـ/1427م[8]، والتوجه إلى جزيرته التي كانت تعيش حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، وبعد وصوله إلى الجزيرة تمكن من إعادة النظام إليها وأعلن رسمياً تبعيته السياسية والاقتصادية والعسكرية للدولة الجركسية [9].

وعلى ما يبدو أن الدولة المملوكية كان لها عدة أسباب تكمن وراء إطلاق سراح الملك جانوس في الوقت الذي كان يشكل خطراً عليها، منها ما هو سياسي وهو إبقاء قبرص

---

(1) زبدة كشف، ص 144.
(2) النجوم الزاهرة: ج14/ ص303، 306.
(3) أنباء الغمر: ج 3/ ص370.
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص303؛ احمد بن يوسف بن احمد القرماني ، اخبار الدول واثار الأول في التاريخ (عالم الكتب، بيروت: د.ت.)، ص 212؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص 203.
(5) ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه: ج3/ص370؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج14/ ص305.
(6) ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه: ج3/ص370.
(7) المقريزي، السلوك، ج4 / ق2 / 726؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج14/ص304.
(8) بعد أن تم إطلاق سراح الملك جانوس أُركِبَ فرساً وتجول في القاهرة، وقام بزيارة احد الكنائس للمزيد عن ذلك ينظر: المقريزي، المصدر نفسه: ج4 / ق2 /ص738، 743.
(9) عاشور، قبرص والحروب، ص 121.

تابعة لها وهذا ما يشكل نصراً سياسياً كبيراً، ومنها ما هو اقتصادي وهو ضمان دولة المماليك الجراكسة تبعية جزيرة قبرص لها، وهذا بحد ذاته يؤمن وصول المراكب التجارية إلى الموانئ المصرية من دون أي عائق كالتعرض لأعمال القرصنة وخاصة أن قبرص تتمتع بموقع جغرافي متميز على الطرق التجارية، أما السبب الثالث: وهو من أهم الأسباب لأنه يخص الجانب العسكري فان الدولة المملوكية أرادت أن تجعل من قبرص قاعدة لها للقضاء على الصليبيين المتواجدين في جزيرة رودس، فضلاً عن ضمانها وصول المعلومات الدقيقة عن تحركات القراصنة الذين يكيدون العداء للدولة الجركسية، والدليل على ذلك إرسال حاكم الجزيرة الملك جانوس سنة 831هـ/1427م الجزية المفروضة على جزيرته والتي قدرت بحوالي خمسين ألف دينار، فضلاً عن إرساله رسالة تحذير للسلطان برسباي يعلمه فيها عن وجود مركبين للقراصنة الكتلان وقد توجها نحو ميناء الإسكندرية، وقبل وصولهما استعد أهل الميناء بناءاً على توجيهات السلطان من اجل التصدي لهما ودفعهما إلى الهرب [1].

لقد كانت دولة المماليك الجراكسة حريصة على استمرار علاقتها مع جزيرة قبرص وجعلها تابعة لها سياسياً، وبعد وفاة الملك جانوس سنة 836هـ/1432م أرسل السلطان برسباي بعثة إلى قبرص في السنة ذاتها مكونة من ستين مملوكاً وكان تحمل رسالة من السلطان برسباي إلى الملك جوان بن جانوس تضمنت مطالبته بدفع الجزية المتأخرة على أبيه ومقدارها أربعة وعشرون ألف دينار، وما تعهد به في كل سنة يقدر بخمسة آلاف دينار [2].

لقد كان الهدف من إرسال البعثة هو اخذ الولاء والعهد والأمان من ملك قبرص الجديد وإعلان تبعيته لهم فعند وصول البعثة استقبلهم وزير الملك، فدخلوا على الملك وابلغوه رسالة السلطان، فاستجاب لهم بالسمع والطاعة وقال: ((أنا مملوك السلطان ونائب عنه، وقد كنت على عزم أن أرسل التقدمة فبلغني قدومكم فأمسكت عن ذلك)) [3]، وتأكيدا

(1) المقريزي، السلوك: ج4/ق2/ص780؛ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3 /ص 397، 405.
(2) لقد انطلقت البعثة من ميناء دمياط متجهة إلى ساحل الملاحة ومن ثم واصلت سيرها نحو العاصمة القبرصية نيقوسيا. ينظر: المقريزي، السلوك: ج4 / ق2 /ص874؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة:ج14/ص363.
(3)المقريزي، المصدر نفسه: ج4 / ق2 / ص883؛ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج3 /ص481؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج14 /ص 365.

لكلامه طلبت البعثة منه القسم على تقديم الولاء لهم، فاستجاب لذلك الطلب وأدى القسم أمامَ القساوسة، عندئذٍ منحته البعثة مكانة التشريف السلطاني المُعّد له [1] ومقابل ذلك أعطى الملك جوان كتاباً رسمياً يؤكد ولاءَهُ وطاعته للسلطان برسباي بقوله: ((وانه في طي علمه وانه من جملة مماليكه))، فضلاً عن إهدائه سبعة مائة ثوب صوف قدر قيمته بعشرة آلاف دينار هدية للسلطان الجركسي تأكيداً لحسن نيته في الطاعة والولاء له [2]، وتنفيذاً لذلك استمر الملك جون بدفع الجزية السلطانية إلى دولة المماليك الجراكسة على الرغم مّما تعرضت إليه جزيرته من اضطرابات سياسية [3]، وبهذا بقيت العلاقة ودية بين الجراكسة والقبارصة حتى وفاة السلطان برسباي، وتولى من بعده ابنه العزيز يوسف (841-842هـ / 1437-1438م) الذي لم يحكم سوى عدة أشهر، وذلك لاعتماده على السياسية المالية القائمة على إعطاء المال لبعض الفرق المملوكية مّما أثار حنق عامة الشعب ضده [4]، لذلك خلع وتولى من بعده السلطان أبو سعيد جقمق سنة (842-857هـ / 1438-1453م) وحكم لمدة خمس عشرة سنة، وكان يحكم على هدى وسياسة سلفه في علاقته مع القبارصة الذين أعلنوا ولاءَهم للسلطان الجديد وتعاونهم معه والدليل على ذلك إرسال السلطان حملة سنة 844هـ/ 1440م منطلقة من دمياط باتجاه قبرص، وفي أثناء وصولهم استقبلهم ملكها الذي ابدى تعاونه مع تلك الحملة [5]، وانه متمسك بعهده للدولة الجركسية باستمراره بدفع الجزية السنوية المفروضة على جزيرته وهي عبارة عن مجموعة من أثواب الصوف أرسلت من جزيرة قبرص إلى بيروت ومن ثم نقلت بمراكب إلى القاهرة، وهذا يُعُّد دليلاً على استمرار حسن العلاقة الجركسية القبرصية، وكان هذا في سنة 847هـ/1443م [6]، وبناءاً على ما اتفق عليه كون الجزيرة تابعة للدولة الجركسية سياسياً واقتصادياً، فضلاً عن القوة التي امتلكتها البحرية الجركسية خلال عهد السطان جقمق، ولهذا السبب لم يتجرأ حاكم قبرص على القيام باي

(1)المقريزي، المصدر نفسه: ج4 / ق2 /ص 883؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج14/ص365؛ الصيرفي، نزهة النفوس: ج3/ص251.
(2)ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج14/ص365-366؛ الصيرفي، المصدر نفسه: ج3/ص251.
(3)الصيرفي، المصدر نفسه: ج3/ص338.
(4)سرهنك، حقائق الاخبار: ج2/ص184.
(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة : ج15/ص343 .
(6) السخاوي، التبر المسبوك، ص 63.

عمل عدائي تجاه الجراكسة، ولذا بقيت العلاقات ودّية بين الجراكسة والقبارصة حتى نهاية عهد السلطان جقمق.

ومما هو ملاحظ من سياق الأحداث أن العلاقات الجركسية القبرصية كانت غير مستقرة تماماً فانها تتأرجح بين العداء والسلم، ففي عهد السلطان أينال شهدت العلاقة سلماً واستقراراً أكثر من ذي قبل، وذلك بسبب عدم الاستقرار في قبرص وتقلب الأوضاع فيها، وبالذات بعد وفاة ملكها حنا الثاني وتولية ابنته الحكم من بعده والنزاع الذي حصل بينها وبين اخيها على الحكم، وهذا ما حفز أخوها إلى السفر لمصر سنة 864هـ/1459م لطلب المساعدة من السلطان الجركسي لحسم النزاع بينه وبين أخته، وبذلك رد السلطان الجركسي على طلبه، وأرسل معه الأمير تغري بردي الطياري لحسم النزاع وتوليته الحكم، ومقابل ذلك فقد أيدت الاسبتارية في جزيرة رودس الملكة شارلوت في توليته الحكم، إلا ان كفة جيمس تغلبت في النهاية على كفة اخته، والسبب هو التأييد الجركسي الذي حصل عليه جيمس والذي حسم الموقف لمصلحته في توليه الحكم سنة 865هـ/1460م [1]، ومن الناحية الأخرى تعرضت الجزيرة إلى أخطار خارجية وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، متمثلاً بالدولة العثمانية في عهد سلطانها محمد الفاتح (855-886هـ/1451-1481م) عند فتحه لمدينة القسطنطينية [2]، وبهذا قامت الدولة العثمانية بالتوسع على حساب الدول المجاورة عندها أرسل حاكم قبرص إلى الدولة المملوكية يطلب المساعدة في إيقاف ذلك التهديد، ورداً على ذلك الطلب أرسل السلطان الجركسي كتاباً إلى السلطان العثماني يوضح فيه بان قبرص تابعة له ويطلب منه عدم الاعتداء عليها، فاستجاب السلطان العثماني لذلك الطلب، وأوقف اعتداءاته على الجزيرة [3].

ونتيجة لاستمرار تلك التهديدات التي كانت تتعرض لها الجزيرة من قبل القوى الأوربية الأخرى المتمثلة بقراصنة الجنويين والكتلانيين، جعلت الدولة المملوكية تتخذ جانب الحرص تجاه جزيرة قبرص إزاء تلك التهديدات الموجهة إليها، وهذا ما حدث فعلاً

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج16 /ص 132-134، 147.
(2) القسطنطينية: تعد من أهم المدن العالمية آنذاك، وقد أسست في سنة (330م) على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول، وكان لها موقع عالمي حتى قيل عنها ((لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها)). للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية وعوامل النهوض وأسباب السقوط (دار ابن كثير، دمشق: 2003م)، ص 154.
(3) فهمي، طرق التجارة، ص 23.

في سنة 863هـ/1458م حين تعرضت الجزيرة إلى اعتداء خارجي من قبل بعض الأوربيين، ورداً على ذلك أرسلت الدولة المملوكية قوة عسكرية بقيادة يونس الدوادار الذي تمكنت قواته من حسم الموقف [1]، وبعد سنتين من تواجدها في قبرص انسحبت إلى مصر، وأثناء توجهها فوجئت بسوء الأحوال الجوية فتفرقت المراكب وغرق بعضها، ووصل عدد قليل منها إلى ساحل الطينة [2].

وبهذا أصبحت الجزيرة معتمدة على دولة المماليك الجراكسة بحكم موقعها ضمن نطاق حدودها الإدارية، وهذا ما أضعفها سياسياً وعسكرياً، ففي عهد السلطان أحمد بن إينال كانت العلاقة سلمية عندما وصل كتاب جانبك الأبلق الظاهري من قبرص في سنة 865هـ/1460م شارحاً فيه للسلطان أن المماليك المتواجدين في الجزيرة يقومون بالتعاون مع القبارصة وتمكنوا من فرض السيطرة على مدينة شرينة التي أعلنت عصيانها بعد محاصرة قلعتها باف [3].

وفي غضون ذلك ذهبت أخت حاكم قبرص صاحبة المدينة المتمردة نحو جزيرة رودس طالبةً المساعدة، ورداً على طلبها أرسلت لها قوة عسكرية من عدة مراكب، لكن القوة البحرية الجركسية تمكنت من السيطرة على المراكب واعتقلت حوالي مئة مقاتل كانوا فيها، ودعماً لذلك قامت الدولة المملوكية بإرسال قوات إضافية تعزيزاً للقوات المتواجدة هناك لغرض السيطرة الكاملة على المنطقة [4].

وعلى الرغم من ذلك لم تستطع دولة المماليك الجراكسة أن تحصل على ما في نفسها من طمع في مدينة شرينة، وذلك لقصر فترة حكم السلطان أينال التي لا تتجاوز السنة.

لكننا نلمح من سير الأحداث وتولي السلطان خشقدم أن العلاقة الجركسية القبرصية بقيت محافظة على الطابع الودي، وهذا يعود إلى انشغال السلطان بالأمور الداخلية لقبرص وبالذات حول تولي العرش، فضلاً عن الاعتداءات الخارجية عليها، المتمثلة بالقراصنة الجنويين، وهذا ما دعا السلطان أن يرسل حملة في سنة 865هـ/1460م للدفاع عن الجزيرة

(1) سليم، عصر سلاطين: ج2/ص259.
(2)ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج16/ص152-153.
(3) قلعة باف: اسم أطلق على مدينتين قديمتين في القسم الجنوبي لجزيرة قبرص. ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج16/ص 224 حاشية رقم (3).
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج 16 / ص224.

وبالفعل سيطرت الحملة على مدينة الماغوصة المتمردة وقلعتها الحصينة وعينت جانبك الأبلق أميراً عليها [1].

وعلى الرغم من تلك الأحداث بقيت العلاقات تحمل الطابع الودي حتى في عهد السلطان قايتباي مع انه قد حصل بعض من التجاوزات من قبل القبارصة، إلا أن هذا لم يغير من طبيعة العلاقة الودية وذلك للأحداث التي استجدت داخل الجزيرة منها: زواج حاكم الجزيرة من كاترين كونارد Catharine Cornaro وهي ابنة أحد أعيان البنادقة التي أصبحت جزيرة قبرص تحت حكمها بإشراف من البنادقة بعد وفاة زوجها سنة 878هـ/ 1473م، وقد ايد السلطان قايتباي ذلك الأمر إلا انه حذرهم من تأخير دفع الجزية، وانه قد يلجأ إلى القوة أن لم يتم هذا الأمر في الموعد المحدد، وهذا ما أرعب حاكمة الجزيرة وجعلها تتخذ قراراً يقر بالتنازل عن حكم الجزيرة للحاكم البندقي في سنة 895هـ/1489م الذي تعهد بدوره للدولة الجركسية بالولاء والتبعية لهم، وبدفع الجزية بانتظام، وبهذا أصبحت جزيرة قبرص تابعة للبنادقة إدارياً وسياسياً مع العلم أنها واقعة ضمن نطاق حدود دولة المماليك الجراكسة، والذي يتحتم عليها الولاء سياسياً واقتصادياً للدولة الجركسية، وهذا ما جعل السلطان يرسل رسالة إلى حاكم الجزيرة الجنوي ويوصيه بمراعاة سكان الجزيرة والحفاظ على أسلوب التعامل الودي معهم لكونهم من ضمن رعاياه وان أي اعتداء عليهم يُعُّد اعتداءاً على الدولة المملوكية [2].

وعلى الرغم من العلاقة الودية بين الجانبين إلا أن الروح العدائية لدى القبارصة لم تنته، إذ قامت بشن هجمات قرصنة على سواحل مصر الشمالية وخاصة على ميناءَي دمياط والإسكندرية، ففي سنة 880هـ/1475م قامت مجموعة من القراصنة بالهجوم على ميناء الإسكندرية فأسروا من تجاره الكثير ومن بينهم أقارب السلطان، فكان رد فعل الدولة المملوكية على هذا العمل العدائي إصدار أمر من السلطان يقضي بإرسال حملة بقيادة الأمير قيت الساقي إلى ميناء الإسكندرية وابلغه بإلقاء القبض على جميع التجار الفرنج عامة والقبارصة خاصة الموجودين داخل دولته، إلا إنه بعد ذلك تم عقد المفاوضات لانهاء

(1) المصدر نفسه: ج 16/ص261، 285.
(2) ابن إياس، بدائع الزهور: ج3/ص150؛ فهمي، طرق التجارة، ص 28 – 29.

تلك الأحداث، فأرسل السلطان من جانبه مبعوثه قيت الساقي إلى قبرص الذي تمكن من التوصل إلى اتفاق بعدم الاعتداء على الموانئ المصرية من قبل الجانب القبرصي [1].

أما عهد السلطان قانصوة الغوري، فقد اتسمت العلاقات بالتباين بين السلمية والعدائية، ذلك لما شهدته المنطقة من متغيرات سياسية آنذاك أبرزها الخطر البرتغالي الذي اقلق دولة المماليك الجراكسة، وهذا ما شجع القبارصة على الاستمرار باعتداءاتهم على الموانئ المصرية،ففي سنة 911هـ/1505م أرسل السلطان مبعوثه تغري بردي الترجمان يحمل كتاباً يحذرهم فيه من الاعتداء على الموانئ المصرية [2]، ومن بعد ذلك التاريخ لم تقم جزيرة قبرص بأي اعتداء ضد الدولة المملوكية.

وعلى ما يبدو أن جزيرة قبرص كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة بسبب وضعها الداخلي غير المستقر الذي استمر حتى السيطرة العثمانية عليها.

وبعد هذا الاستعراض الذي اطلعنا عليه بانت فيه استماتة الدولة المملوكية في السيطرة على جزيرة قبرص وإحراز النصر الكبير عليها نخرج بنتائج سياسية واقتصادية أفرزتها الأحداث.

1. لقد كان لفتح قبرص دورٌ مهمٌ في تأمين الجانب السياسي لدى دولة المماليك الجراكسة ، فضلاً عن إثبات مكانتها السياسية في المنطقة، وإنها قادرة على مواجهة الأعداء.
2. ما يتعلق بالجانب التجاري الذي يعد المورد الرئيس للدولة الجركسية، فقد تمكنت البحرية الجركسية من القضاء على القراصنة القبارصة الذين كانوا يهددون انسيابية الاقتصاد الجركسي في البحر المتوسط.
3. تمكنت القوات الجركسية من القضاء على بقايا الصليبيين في المنطقة، لذلك لم يبق أمامها سوى الخطوة الأخيرة للقضاء عليهم بشكل نهائي في السيطرة على جزيرة رودس التي شكلت بدورها أيضاً قلقاً لدى الدولة الجراكسية بشكل مستمر.

---

(1) المصدر نفسه: ج3/ص114، 119؛ سليم، عصر سلاطين: ج2/ص260؛ج7/ص196؛
Spuler , The Muslim , Part. II , p. 76.

(2) سرهنك، حقائق الأخبار: ج2/ص188-189؛ سليم، عصر سلاطين: ج2/ص214.